المحاضرة السابعة

نظريات التعلّم (المعرفية)

مقدمة:

تُمثِّل النظريات المعرفية ثورة في فهم التعلم، حيث يغوص "علماء النفس المعرفيون" في أعماق العقل البشري لاستكشاف عملياته الداخلية المعقدة، بعيدًا عن النظرة السلوكية البسيطة التي تربط بين المثير والاستجابة. يركز هؤلاء العلماء على آليات الانتباه والفهم والذاكرة، معتبرين السلوك الظاهر انعكاسًا لعمليات عقلية ديناميكية وغنية بالخطط والأفكار والذكريات .

يُشبه دورهم دور المستكشفين الذين يكتشفون عالمًا تحت سطح المحيط، مليئًا بالتفاصيل المترابطة التي تشكل بنية المعرفة. من خلال ربط هذه العمليات ببنية المعرفة المنظمة، تقدم النظريات المعرفية فهمًا شاملاً للتعلم، معتبرة إياه رحلة تتفاعل فيها الأفكار والعواطف والخبرات السابقة لتشكيل تجربة فريدة لكل فرد.

أولاً-النظرية الجشطالتية: ثورة ضد التحليلية السلوكية

ظهرت النظرية الجشطالتية في ثلاثينيات القرن العشرين كرد فعل ثوري ضد السلوكية، رافضةً تحليل السلوك إلى مكونات منفصلة ومؤكدة على أهمية فهم "الكل" المتكامل. كما عبّر كورت كوفكا، أحد مؤسسيها، فإن الجشطالت "أكثر من مجموع أجزائه"، حيث تشكل العناصر بنية ديناميكية مترابطة يؤثر فيها كل جزء على الكل .

انتقد ماكس فرتهيمر، رائد آخر، السلوكية لتجاهلها العمليات العقلية الداخلية، معتبرًا إياها تختزل السلوك إلى ردود أفعال ميكانيكية. أما ولفجانج كوهلر، فشبه السلوك البشري بـ "قمة جبل الجليد"، داعيًا إلى استكشاف العمليات المعرفية الكامنة تحت السطح لفهم الدوافع الحقيقية .

قدمت الجشطالت منظورًا بديلًا يرى السلوك نتاجًا للإدراك الحسي والاستبصار والعمليات المعرفية المعقدة، موسعةً آفاق علم النفس. أثرت النظرية على مجالات متعددة مثل التعليم، حيث شجعت على فهم العلاقات بين المفاهيم بدلاً من تدريس الحقائق المنفصلة، وفي العلاج النفسي عبر "علاج الجشطالت" الذي يركز على إدراك الأنماط المتكاملة للسلوك .

باختصار، كانت الجشطالت ثورة فكرية ضد السلوكية، قدمت رؤية شاملة للسلوك البشري وتركت إرثًا مستمرًا في العلوم الإنسانية والتطبيقية.

1.النظرية الجشطالتية: أسسها ومبادئها الثورية

تأسست النظرية الجشطالتية على مفاهيم ثورية تتحدى السلوكية، أبرزها :

1.1. لكل أكبر من مجموع أجزائه: يؤكد هذا المبدأ أن الكل يمتلك خصائص تنشأ عن تفاعل الأجزاء، ولا يمكن فهمها بدراسة الأجزاء بمعزل عن بعضها. مثال ذلك اللحن الموسيقي الذي يتجاوز مجموع نوتاته .

2.1. الإدراك الحسي النشط: يرفض الجشطالت النظرة السلوكية السلبية للإدراك، معتبرًا إياه عملية بنّاءة ينظم فيها العقل المثيرات الحسية لإدراكها كوحدات ذات معنى .

3.1. الاستبصاروحل المشكلات: يُبرز الجشطالت دور الاستبصار في التعلم، حيث يتم فهم العلاقات بين العناصر وإعادة تنظيمها لحل المشكلات، كما أظهرت تجارب كوهلر مع القرود .

4.1. التنظيم الذاتي والتعادل: تميل الأنظمة الجشطالتية إلى البحث عن التوازن والاستقرار، كما في إدراك المثيرات الغامضة بأكثر الطرق تنظيمًا .

5.1. المجال والأرضية: يركز الإدراك على عناصر معينة (المجال) بينما تتراجع أخرى إلى الخلفية (الأرضية)، وهو مفهوم ديناميكي يتغير حسب السياق .

2.انتقادات النظرية الجشطالتية:

-المبالغة في الاستبصار: انتُقدت النظرية لتركيزها المفرط على الاستبصار وإهمال أشكال التعلم التدريجية والتكرارية .

-تعميم مبدأ الكل : أشار النقاد إلى أن الكل قد يكون في بعض الحالات مجرد مجموع أجزائه أو أقل منها، خاصة في سياقات المجموعات .

-صعوبة تفسير التعقيد : واجهت النظرية تحديات في تفسير كيفية تعامل العقل مع المعلومات المعقدة، حيث قد يركز على الأجزاء بدلاً من الكل .

رغم هذه الانتقادات، تُقدر النظرية الجشطالتية لإسهاماتها في فهم التعلم والإدراك، وتقديمها منظورًا بديلًا للسلوكية، مما أثرى علم النفس والتعليم. إنها تظل إطارًا مفاهيميًا غنيًا يُسهم في استكشاف التعقيدات الديناميكية للعقل البشري.

ثانيا-النظرية البنائية:

1.النظرية البنائية: جذورها وتطورها

تعود جذور النظرية البنائية إلى القرن الثامن عشر مع الفيلسوف الإيطالي "جيمباتيستا فيكو"، الذي مهد الطريق لاستكشاف طبيعة المعرفة وبنائها. وفي القرن العشرين، ساهم فلاسفة مثل "كون" و"رورتي" في تطوير الأسس المعرفية التي أثرت على المفاهيم البنائية .

يعود الفضل الأكبر في تطبيق البنائية في التربية إلى "جون بياجيه"، الذي قدم عبر أبحاثه الرائدة حول النمو المعرفي منظورًا ثوريًا للتعلم، مؤكدًا أن المعرفة تُبنى بشكل نشط من قبل المتعلم. طور بياجيه نظرية معرفية تصف مراحل النمو المعرفي لدى الأطفال، من الحسية الحركية إلى العمليات الشكلية، مما أحدث تحولًا في الممارسات التعليمية نحو التركيز على بناء المعرفة بدلاً من نقلها .

إلى جانب بياجيه، ساهم "ليف فيجوتسكي" بمنظوره الاجتماعي للتعلم، مبرزًا دور الثقافة واللغة في بناء المعرفة، بينما أثرت "جان بياجيه" بمفهوم "التنظيم الذاتي" في فهم دور المتعلم النشط .

تطورت البنائية عبر القرون، من أفكار الفلاسفة الأوائل إلى الباحثين المعاصرين، مقدمة منظورًا ديناميكيًا أثر بعمق على التعليم والممارسات التربوية، وجعلت المتعلم محور عملية بناء المعرفة.

2. النظرية البنائية: رحلة في عالم النمو المعرفي لبياجيه

تأخذنا "النظرية البنائية" لـ "جون بياجيه" في رحلة استكشاف النمو المعرفي، مؤكدة على الدور النشط للفرد في بناء معرفته عبر التفاعل مع البيئة. يصف بياجيه التعلم كـ "عملية بناء نشط"، حيث تُبنى المعرفة ديناميكيًا وليس بشكل سلبي .

يقدم بياجيه نموذجًا مرحليًا للنمو المعرفي، يمر فيه الأطفال بأربع مراحل :

1.2. الحسية الحركية: يتفاعل الطفل مع العالم عبر الحواس والحركة .

2.2. ما قبل الإجرائية: يتطور التفكير الرمزي واللغة .

3.2. الإجرائية المحسوسة: يصبح الطفل قادرًا على العمليات الاستنباطية وإدراك الأبعاد .

4.2. الإجرائية الصورية: يربط المفاهيم المجردة بالمواقف المحسوسة .

يُعدّ "التوازن المعرفي" مفهومًا محوريًا، حيث يصف التكيف المستمر بين المعرفة الموجودة والجديدة. أثرت نظرية بياجيه بعمق على التعليم، مشجعةً على نهج يركز على الاستكشاف والتفكير النقدي، مع دور المعلم كميسر وليس ناقلًا للمعرفة .

من خلال هذه الرؤية، تقدم البنائية فهمًا ديناميكيًا للتعلم، يُبرز دور المتعلم النشط في تشكيل معرفته.

أ- المرحلة الحسية الحركية عند بياجيه: بناء الأساسيات:

تُعد المرحلة الحسية الحركية، وفقًا لبياجيه، الأساس الذي تقوم عليه رحلة النمو المعرفي، وتمتد من الولادة حتى سن الثانية. خلالها، يتفاعل الأطفال مع العالم بشكل أساسي عبر حواسهم وأفعالهم الجسدية، حيث يبنون فهمًا أوليًا للبيئة من حولهم. يصف بياجيه هذه المرحلة بأنها "بداية بناء المعرفة"، حيث يتعلم الأطفال عبر اللمس والتذوق والرؤية والاستماع، مكتسبين مهارات وقدرات أساسية .

تمر هذه المرحلة بعدة مراحل فرعية، مثل الاستجابات الانعكاسية، والنشاط العفوي، والتمثيل الرمزي، حيث يطور الأطفال فهمًا مبكرًا للسببية ويستكشفون بيئتهم بشكل أكثر نشاطًا. رغم عدم قدرتهم على التفكير المجرد، يؤكد "بياجيه" على أهمية هذه المرحلة في وضع الأسس المعرفية الضرورية للمراحل اللاحقة .

في الختام، تشكل المرحلة الحسية الحركية اللبنة الأولى في النمو المعرفي، حيث يبدأ الأطفال رحلتهم نحو فهم العالم من خلال التفاعل الحسي والحركي.

ب- المرحلة ما قبل الإجرائية عند بياجيه: عالم التفكير الرمزي:

تشكل المرحلة ما قبل الإجرائية، وفقًا لبياجيه، مرحلة انتقالية حاسمة في النمو المعرفي، تمتد من سن الثانية إلى السابعة. خلالها، يطور الأطفال التفكير الرمزي والقدرة على استخدام الرموز لتمثيل الأشياء والأفكار، واصفًا إياها بـ"عالم التفكير الرمزي ."

يتميز التفكير في هذه المرحلة بأنه حدسي وغير منطقي، حيث يعتمد الأطفال على خبراتهم المباشرة ويجدون صعوبة في فهم المنطق المجرد. تمر المرحلة بمراحل فرعية مثل التفكير الحدسي، والرمزي، والانتقالي، حيث يكتسب الأطفال مهارات جديدة في الاستدلال .

خلال مرحلة التفكير الرمزي، يبدأ الأطفال باستخدام اللغة والرموز لتمثيل الأشياء، مما يمهد لتطور التفكير المجرد. رغم محدودية فهمهم للمفاهيم المعقدة، يؤكد بياجيه على أهمية هذه المرحلة في بناء أساس التفكير المنطقي اللاحق .

في الختام، تُعد المرحلة ما قبل الإجرائية جسرًا حاسمًا نحو المراحل المتقدمة من النمو المعرفي، حيث يضع الأطفال اللبنات الأساسية للتفكير الرمزي والاستدلال.

ج- المرحلة الإجرائية المحسوسة عند بياجيه: رحلة نحو الاستدلال:

تشكل المرحلة الإجرائية المحسوسة، وفقًا لبياجيه، مرحلة محورية في النمو المعرفي، تمتد من سن السابعة إلى الثانية عشرة. خلالها، يطور الأطفال التفكير الاستنباطي والاستدلالي، مع استمرار ارتباط تفكيرهم بالتجارب الحسية الملموسة. يصف بياجيه هذه المرحلة بأنها "رحلة نحو الاستدلال"، حيث يصبح التفكير أكثر منطقية وتجريدًا مقارنة بالمرحلة السابقة .

يتميز الأطفال في هذه المرحلة بقدرتهم على فهم وتطبيق العمليات المنطقية مثل العكس والدمج والتصنيف، لكنهم لا يزالون يعتمدون على الخبرات الحسية. تمر المرحلة بمراحل فرعية مثل العمليات الحسية الملموسة والعمليات المجردة المبكرة، حيث يكتسب الأطفال مهارات جديدة في الاستدلال .

خلال مرحلة العمليات الحسية الملموسة، يطبق الأطفال العمليات المنطقية على الأشياء الملموسة، ويفهمون مفاهيم مثل الحفظ والتحويل. رغم صعوبة تعاملهم مع المفاهيم المجردة المعقدة، يؤكد بياجيه على أهمية هذه المرحلة في بناء أساس التفكير المنطقي الأكثر تجريدًا في المراحل اللاحقة .

في الختام، تُعد المرحلة الإجرائية المحسوسة خطوة حاسمة في النمو المعرفي، حيث يضع الأطفال اللبنات الأساسية للتفكير المنطقي المجرد.

د- المرحلة الإجرائية الصورية عند بياجيه: بلوغ آفاق التفكير المجرد:

تشكل المرحلة الإجرائية الصورية، وفقًا لبياجيه، قمة النمو المعرفي، حيث تبدأ عادةً من سن الثانية عشرة وتمتد إلى البلوغ. خلالها، يطور الأفراد التفكير المجرد والمعقد، متجاوزين قيود الخبرات الحسية الملموسة. يصف

بياجيه هذه المرحلة بأنها "بلوغ آفاق التفكير المجرد"، حيث يصبح الأفراد قادرين على استكشاف المفاهيم المجردة، وحل المشكلات المعقدة، والتفكير في الاحتمالات والمبادئ .

يتميز التفكير في هذه المرحلة بالمرونة والتجريد، مع القدرة على التعامل مع مفاهيم مثل الميتافيزيقيا والأخلاق والفلسفة. تمر المرحلة بمراحل فرعية مثل العمليات الصورية المبكرة والمتقدمة، حيث تُكتسب مهارات جديدة في التفكير النقدي والاستدلالي .

رغم أن "بياجيه" يعتبر هذه المرحلة قمة النمو المعرفي، إلا أنه يؤكد أن النمو المعرفي عملية مستمرة مدى الحياة، حيث يستمر الأفراد في استكشاف الأفكار الجديدة وتوسيع فهمهم للعالم .

في الختام، تُعد المرحلة الإجرائية الصورية تتويجًا لرحلة النمو المعرفي، حيث يصبح الأفراد قادرين على التفكير المجرد واستكشاف المفاهيم المعقدة، ممّا يثري حياتهم الفكرية والثقافية.

3- افتراضات النظرية البنائية: ركائز لفهم التعلم:

تقوم النظرية البنائية على عدة افتراضات أساسية تشكل فهمها لطبيعة التعلم، وهي :

1.3. النشاط البنائي: تؤكد أن المعرفة تُبنى بشكل نشط من قبل الفرد عبر تفاعله مع البيئة، وليس بشكل سلبي. كما يصف بياجيه: "المعرفة نتاج نشاطنا البنائي، حيث نتفاعل مع العالم لبناء فهمنا ".

2.3. المراحل المتتالية للنمو المعرفي: تقترح أن النمو المعرفي يحدث عبر أربع مراحل متتالية (الحسية الحركية، ما قبل الإجرائية، الإجرائية المحسوسة، الإجرائية الصورية)، حيث تمهد كل مرحلة للتي تليها .

3.3. التوازن المعرفي: يشير إلى العملية الديناميكية بين استيعاب المعرفة الجديدة وتكييف البنية المعرفية الموجودة، عبر عمليتي الاستيعاب والتكيف. كما يوضح بياجيه: "التوازن المعرفي هو تكيف مستمر بين ما نعرفه وما نتعلمه ".

4.3. دور المعلم: يرى أن دور المعلم هو تسهيل بناء المعرفة عبر خلق بيئة غنية بالاستكشاف، وليس مجرد نقل المعلومات. يؤكد بياجيه: "المعلم مرشد يوجه المتعلمين نحو التفكير النقدي والاستكشاف ".

هذه الافتراضات تشكل أساس النظرية البنائية، مبرزة دور المتعلم النشط في بناء معرفته عبر مراحل متتالية، مع دور المعلم كميسر للعملية التعليمية.

النظرية البنائية إطار نظري أساسي في التعليم، يقوم على افتراضات تشكل فهمًا عميقًا لطبيعة التعلم. من أبرز هذه الافتراضات :

أ .المعرفة كبناء نشط: تؤكد أن المعرفة ليست نقلًا سلبيًا للمعلومات، بل عملية بناء نشطة يشارك فيها المتعلم عبر تفاعله مع البيئة. هذا يدفع نحو تصميم بيئات تعليمية تشجع الاستكشاف والتجربة .

ب. التفاعل مع العالم: ترى أن المعرفة نتاج تفاعل الفرد مع العالم، متأثرة بتجاربه الشخصية وثقافته وسياقه الاجتماعي، مما يستدعي ممارسات تعليمية تراعي السياق الفردي .

ج. **دور المعلم كمرشد:** تُبرز دور المعلم كميسر لبناء المعرفة، وليس كمصدر لها، عبر تشجيع التفكير النقدي والاستكشاف، مما يجعل التعليم مركزًا حول المتعلم .

باختصار، تقدم البنائية إطارًا لفهم التعلم كعملية ديناميكية نشطة، وتوجه نحو ممارسات تعليمية أكثر فعالية وتكيفًا، تعزز المشاركة النشطة والتفكير النقدي، مما يحسن نتائج التعلم.